مع الحديث النبوي :



للدكتور / محمود محمد عمارة

تمهيـد :-

من بين ماتناقلته الألسنة من أساطير الأولين.. ما يحكى قصة الحياة قبل البعثة النبوية ومنها ما قرأته :

(ظهرت «فينوس» على بحيرة من عطر الياسمين. أجمل ما يكون الجمال جمالا وجسمها يتوهج كوقدة الشمس وفتنتها الآخذة بالمجامع تثير عاصفة من الإثارة والهوس وجاءها رجل يسعى فقالت له: من أنت ؟

قال: راع يرعى النفوس الشاردة. ويدلها على ينابيع الماء في الصخر. وعلى المرج الخصيب في الوادي الجديب .

فقالت :-

مسكين ... خذ مكانك بين الذين يمزجون العطر تحت قدمي. فتملك مثل ما يملكون المال ... والجاه... والشهرة... والمتاع . فقال الرجل: كلا «يافينوس» إنني إن فعلت ذلك .. أفقد الإنسان الذي به وجودي) .

وهكذا كانت الحياة قبيل البعثة .. حين أخذت الأرض زخرفها

قال مالك بن الحويرث: (أتينا إلى النبى صلى الله عليه وسلم. ونحن شببة . متقاربون. فأقمنا عنده عشرين يوما وليلة .

وكان رسول صلى الله عليه وسلم رحيما . رفيقا. فلما ظن أنا قد اشتهينا أهلنا. أو قد اشتقنا . سألنا عمن تركنا بعدنا. فأخبرناه قال :

ارجعوا إلى أهليكم .

فأقيموا فيهم وعلموهم. ومروهم :

- وذكر أشياء أحفظها. أو لا أحفظها. وصلوا كما رأيتمونى أصلى. فإذا حضرت الصلاة. فليؤذن لكم أحدكم. وليؤمكم أكبركم) رواه البخاري .

وازينت.. وظن المنحرفون أنهم قادرون عليها. ومكروا مكرا كبارا. فكانوا لصوصاً مهرة . يحاولون سرقة ما تبقى من إنسانية الإنسان .

وهكذا السارق الماهر الماكر :

يقطع الأسلاك.. فيعم الظلام.. وعندئذ يمارس جريمته فإذا انحسر الظلام خنس .. فلا مكان له تحت الشمس الطالعة .

ولقد عاش العالم قبل البعثة تحت وطأة ليل كموج البحر أرخى سدوله بألوان الهموم .. وانقضّت عصابة السوء على الإنسان في محاولة لتدميره .

وإذا كانوا يقولون إن أشد ساعات الليل ظلاما هي التي تسبق طلوع الفجر فقد شددت الفتنه قبضتها لاستقطاب الإنسان عن طريق غرائز الجنس .. والتملك وحب الحياة .

ولكن .. إذا كانت الضربة القوية تحطم الزجاج .. فإن هذه الضربة نفسها هى التي تثير في الانسان جنود المقاومة .. التي هبت تدافع عن كرامة الإنسان .. بهذا الإباء الرافض للفتنة المتحكمة . وفي هذه اللحظة .. وافته الأقدار العليا .. بالرائد الذي لا يكذب أهله .. والذي كان على موعد مع الإنسان ..

المربي العظيم :

انتهت بحوث البُصَراء بطبائع النفوس إلى تليخص ركائز العظمة في أمور أربعة :

(١) الأخلاق الرفيعة التي يتميز بها العظيم .

(٢) سمو المبادىء التي يدعو اليها.

(٣) قوة تأثيره. وقدرته على تكميل غيره بما كمل به نفسه .

(٤) نجاحه في صياغة جيل يتحمل المسئولية من بعده .

ولقد كان محمد صلى الله عليه وسلم في الذروة من هذه الركائز على ما يشير إليه الحديث الشريف وكيف ؟ ذلك ما نحاول تجليته فيما يلي :

التحول الكبير:

هؤلاء مجموعة من الشباب يستيقظون على دقات الحق المبين بعد ما أحسوا بالفراغ في بيئة صار الدين فيها تقليدا . والأدب غزلا . والحياة كأسا يغيب فيها وجود الانسان .

وعلى أمواج الحنين .. وهو زاد المشتاق، ونزهة العشاق.. مضوا يحملون القلوب إلى ديار المحبوب .. الى الرائد الذي لا يكذب أهله .

وفي مجتمع من نوع جديد : (..على أي شيء كان يجتمع الناس في مجتمع الجاهلية ؟

وفيم يجتمع اليوم مع إخوته في الله ورسوله ؟ ألا إنها الأخوة هنا ... حيث لم تكن أخوة هناك لقد كان يجتمع مع لدات له من قبل في المجتمع الجاهلي .. ففيم كانوا يجتمعون ؟ يسمرون مثلا؟

في لحظات الصفاء ...

نعم .. ولكن كل منهم مشغول بذاته. مشغول بإبرازها خشية أن يبرز أحد ذاته أكثر منه.. فيتميز في المجلس بشيء.

أو ينسون أنفسهم في مجلس لهو وشراب وفارغ الحديث . أو يلتقون . أو يتصارعون على مصالح التجارة أو يلتقون في حلف قبيلة ضد غيره ... فيدبرون معا خطة العدوان .

أو يرددون الشعر. ويتفاخرون بالأنساب .. تلك دنيا لقائهم .. وتلك مشاعر اللقاء .. أما اليوم .. فشيء آخر لم يذق طعمه من قبلُ أبدا .

إنه الحب .. إنه الترابط أو الالتصاق).

لقد تراجعت مشاعر الكراهية .. والمشاعر المحايدة .. والسلبية البغيضة ... تراجعت الأثرة ... وكان الإيثار ...انهم لم يكتفوا بمطالعة الأفكار مسطورة في كتاب .. لكنهم حرصوا على المقابلة الشخصية ... فعن طريقها تنشأ الملكات وتقوى .. الى جانب ما تثمره من خلال لابد منها في تكوين المتعلم .. الذي يجد نفسه في

مجموعة من رفقة الخير... تزوده بهذه الخلال التي لا يتمثلها لو كان معزولا .

فاذا كانت الجماعة محدودة العدد .. آتت التربية أكلها :

١ - لأنها تتيح الحد الأقصى من التفاعل بين الأعضاء .

٢ - تساعد على نمو ملكة التفكير .

٣ - تنمى مشاعر الانتماء .

٤ - يربو الإحساس بمعنى المساواة .

٥ - تساعد على انبثاق قيادات جديدة ... حيث تتراءى مواهبها في نقطة الضوء.

(ولا يمكن أن يتربى الإنسان تربية حقيقية متكاملة إلا في جماعة.

وعلى أهمية التربية الفردية الى أقصى مدى الأهمية ، فانها وحدها. لا تنشىء كيانا سويا للإنسان .

لأن هناك جوانب من النفس الإنسانية لا تنضج. ولا تعمل . إلا في داخل جماعة فيها أفراد آخرون . فاذا لم يلتق الانسان بالجماعة أو لم يتعود التعامل معها فستظل هذه الجوانب كامنة معطلة غير مدربة على العمل . فتنكمش وتتضاءل . كما ينكمش ويتضاءل كل عضو لا يستخدم في جسم الانسان).

الرائد.. الانسان

إنهم شباب .. فهم متحمسون . متقاربون في السن .. فهم متنافسون ..ومن ثم.. فلا يصلح لقيادتهم قائد عبقري .. ولا بطل عسكري .. لقد أشار العقاد الى أن العبقرية ندرة لا يطمع الناس أن يكونوها .. والبطولة لون من التفرد لايحلم كل الناس .. بها ومن هنا كانت العبقرية والبطولة تميزا .. لا تمكن من الاندماج مع الجماهير ..ولو وكل الى عبقري قيادة أمة لأرهقها وما حقق بها ما يريد..ولكن الناس .. والشباب بخاصة في حاجة إلى القائد... الإنسان الذي تهرع إليه آمال البشر .. فيحتويها ثم يغذيها بما يملك من رصيد الرفق والرحمة . يقول ابن خلدون :

(واعلم أنه قلما تكون ملكة الرفق فيمن يكون يقظا شديد الذكاء من الناس. وأكثر ما يوجد الرفق في الغفل والمتغفل. وأقل ما يكون في اليقظ. لأنه يكلف الرعية فوق طاقتهم . واطلاعه على عواقب الأمور في مباديها بألمعيته فيهلكون لذلك.

قال صلى الله عليه وسلم: «سيروا على سير أضعفكم ».

ومن هذا الباب . اشترط الشارع في الحاكم قلة الإفراط في الذكاء . ومأخذه من قصة زياد بن أبي سفيان لما عزله عمر عن العراق. وقال له :

لِمَ عزلتني يا أمير المؤمنين : ألعجز أم لخيانة ؟

فقال عمر :

لم أعزلك لواحدة منهما . ولكني

كرهت أن أحمل فضل عقلك على الناس .

فأُخذ من هذا أن الحاكم لا يكون مفرط الذكاء والكيس مثل زياد بن أبي سفيان . وعمرو بن العاص. لما يتبع ذلك من التعسف وسوء الملكة . وحمل الوجود على ماليس في طبعه وتقرر من هذا أن الكيس والذكاء عيب في صاحب السياسة لأنه إفراط في الفكر . كما أن البلادة إفراط في الجمود . والطرفان مذمومان من كل صفة إنسانية . والمحمود هو التوسط)

مفتاح الشخصية:

وإذا كان الافراط في الذكاء واليقظة عيبا في حكام الدنيا .. فقد كان صاحب الخُلُقِ العظيم صلى الله عليه وسلم طرازا فريدا .. تجمع في قلبه ما تفرق في قلوب الناس من عواطف الخير .. محروسا بالوحي الأعلى .. فأنقذ البشرية من الضلال.. بأخلاقه تلك العظيمة ... ومنها ذلك الرفق الذي شهد به هؤلاء الشباب فكان البلسم الشافي .

أبعاد الرفق النبوي :

الرفق ضد العنف .

وهو خلق ايجابى ومن معانيه: الوسط (رفقت السير) والانتفاع : (ارتفقت بالشىء : انتفعت به) . والاحكام : (رفقت العمل : أحكمته) والرفيق : الحاذق في عمله. وهو ضد الأخرق .. العاجز

والرحمة : خليط من مشاعر: الحنان .. والإشفاق ... والرقة.. يتجاوز بها الانسان عن زلات الآخرين .. ومن مزيج الرفق والرحمة يكون الإنسان إنسانا عظيما ...واذن فقد كان هذا الشباب المتحمس على موعد مع صاحب الخلق .. الانسان العظيم .. بعيدا عن العبقرية .. والبطولة .. منفردتين ... معزولتين عن الوحيِ الأعلى .

إن العش الذي يقوم على غصن هش ليس له قرار .. ومن ثم.. لم تكن رحمته ورفقه لونا من المجاملة ينهى به المقابلة ... بيد أنها الفطرة السوية تفتح ذراعيها للحماس المتوقد ... فتفسح له الطريق على جناحين منهما .. حتى لا يكون الحماس شلالا هادرا.. وليكون في النهاية عملا مثمرا .

سمو مبادئه :

ولقد كان في رحمته ورفقه سماء ما طاولتها سماء .. فلم يكن خلقه ذلك عنصريا ..ملونا .. وانما هو الخلق الطليق يستظل به العاكف والباد،ولقد كتب الكاتبون محللين شخصيته صلى الله عليه وسلم وعظمة ما يدعو إليه من مبادىء.. وكان من أبرزهم «مايكل هارت» الذي جعل محمدا صلى الله عليه وسلم على رأس مائة من عظماء

العالم.. ولكنه (لم يتخذ قيمة الأعمال التي أتوا بها. وكما لا تهم الشخصية مقياسا لعظمتهم وإنما نظر إلى درجة التأثير الذي أحدثه الشخص في العالم.

ومدى دخله هو في التأثير وسعته. سواء أكان ما أتى به خيرا للبشرية أم شرا في الحقيقة والواقع .

فمحمد صلى الله عليه وسلم انطبق عليه مقياس هذه الناحية من العظمة . وكان له فيها القسط الأكبر . فكان فيها أعظم العظماء لكننا أردنا أن نعرض العظمة في مقوماتها الذاتية لا في درجة تأثير العظيم فقط. والتي يتكون منها المقياس الصحيح للعظمة ... والتي تكون نموذجا يحتذى للكمال البشري وهذا ما وجدنا أن نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم قد استجمع فيه دعائم العظمة كلها مما تفرق بين زعماء البشر . فكانت عظمته جماع العظمات من الوجهة الواقعية التاريخية وإن لم ينظر إلى صفة النبوة التي ألقاها الله عليه وأيده بها)

ولقد أشار الحديث الشريف الى خلاصة هذه المبادىء التي يدعو إليها :

١ ـ بداية الإصلاح من الأسرة ..
٢ ـ أهمية القدوة المتمثلة فيهم تحت سقف البيت .
٣ ـ التعليم .
٤ ـ الدعوة إلى الخير .
٥ ـ إقام الصلاة.
٦ ـ تقديره لدوافع الإنسان.. حين أحس بالشوق الى الأهل فأمر الشباب بالعودة . صلة للرحم وحماية للأسرة من مخاطر الغربة الطويلة .

لقد كان الشباب.. في الجاهلية .. وفي فارس والروم واقعين بين شقي الرحى : فلقد خدعوا الشباب مرة بالرقة والدلال. ومرة بالقيود والأغلال وصار الأمر على ما قيل :

(ان غمده فارغ مثل كيسه. فهو أعزل فقير.)

فلما جاء صلى الله عليه وسلم منحه الخلق العظيم الذي فتح به العالم .. ووضع في صدره الكتاب .. الذي سكن منه في قلب عامر. فغير وجه العالم كله .

قوة التأثير :

يقول «جوستاف لوبون»

«ان ملكة الفنون لا تستحكم في أمة من الأمم الا في ثلاثة أجيال : جيل التقليد. وجيل التحضر وجيل الاستقلال وقد شذ العرب فوصلوا إلى الاستقلال في جيل واحد» .

كانت قدرته صلى الله عليه وسلم على التأثير مردودة الى أنه كان القدوة الحسنة.

وبهذه القدوة ظل منتصبا في وعي من رآه .. فلا يفلت من جاذبيته ... فلم يكن سلطانا يتاجر بآمال أمته..

ولم يكن مترفا يتفنن في أطايب الطعام بينما تموت الأمة جوعا .

وكان في تناوله للأمور بسيطا ... بعيدا عن التعقيد ... يتجاوز الشكليات الى الأصول. وبينما زعماء فارس والروم :

تجارتهم قمار .. يربح فيها واحد.. ويخسر الملايين .. ويمارسون أقسى ألوان الظلم.. بينما يتحدثون عن المساواة .

وتضيء في قصورهم الثريات ويموت الود في القلوب في هجمة شرسة على ثروة الحب في الأفئدة .

القدوة الفاعلة :

استطاع محمد صلى الله عليه وسلم أن يحيي ملكات هؤلاء الشباب وأن ينشط الخيال الخصيب فيهم .. فتفاعلوا مع الحياة.. وتقدموا ليتملكوا زمام المستقبل .

وهذا سر نجاحه صلى الله عليه وسلم في إخراج الناس من الظلمات إلى النور .. دون زعماء البشر جميعا .

(فالعظيم من رجال التاريخ انما يشتهر غالبا في ميدان واحد أو اثنين من ميادين العظمة : فقد يشتهر أحد الفاتحين بفتحه، أو أحد الشجعان بشجاعته، أو أحد المخترعين بفرط ذكائه الاختراعي أو أحد العلماء الحفاظ بوفور علمه وحفظه، أو أحد الأسخياء الأجواد بفرط أريحيته وجوده، أو أحد الخطباء ببراعة بديهته وبلاغته، إلى غير ذلك ...على أن كثيرا من هؤلاء العظماء في إحدى النواحي يكونون مثلا سيئا منحطا في أخلاقهم أو حياتهم الخاصة، أو في بقية النواحي التي ليس لهم فيها تبريز وشهرة، فيكون الخطيب البليغ جبانا شحيحا، ويكون الفاتح الشجاع ظلاما منتهكا للحرمات والأموال والأعراض ولكنه لمعت فيه مزية واحدة أورثته شهرة غطت معايبه الأخرى وصرفت الأنظار عنها . وفقا للقانون النفسي في توجيه أنظار الرائين وانتباههم .

أما أن يكون المرء عظيما في الشجاعة عظيما في الحرب، عظيما في السلم، عظيما في العدل، عظيما في الصدق، عظيما في العقل وفي الحزم والحكمة .. والتدبير، عظيما في الأخلاق الشخصية ظاهرا وباطنا في السر والعلن.. عظيما في الجود وفي الزهد وفي التجرد والاخلاص والإيثار وحب الخير للغير، عظيما في معرفة داء الحياة ودوائها، عظيما في البلاغة وجوامع الكلم، عظيما في التشريع والقضاء، إلى غير ذلك من ميادين العظمة ، بحيث يكون هو الشاب المثالي،الأمين المثالي، التاجر المثالي، الصديق المثالي، الزوج المثالي، الأب المثالي، ثم القائد المثالي، المربي المثالي.. فإن مثل هذه العظمة الشاملة هي فوق مراتب العظماء، إنها عظمة محمد صلى الله عليه وسلم و«الله أعلم حيث يجعل رسالته» .

منهج التربية :

من اسباب فشل التربية اليوم :

ـ فساد التصور. ـ سوء التطبيق.
ـ غياب القدوة.

من أجل ذلك وضع صلى الله عليه وسلم للشباب خطة العمل التي يملكون بها المستقبل.. والتي يتلافون بها هذه السلبيات جميعا .

فلما ظن ... مجرد الظن.. أنهم قد اشتاقوا إلى أهليهم .. أمرهم بالعودة إليهم .. تقديرا منه صلى الله عليه وسلم لدوافع الإنسان.. وحتى تؤتي خطة التربية والتعليم ثمارها... وقبل أن تشوش حاجات النفس على العقل فلا يفهم .. وعلى القلب فلا ينشط .

وقد وضع لهم خطة العمل : ـ

أ ـ انها تبدأ من البيت أولا .. وخيركم خيركم لاهله .. (ارجعوا الى أهليكم).

ـ على ان يكونوا لهم القدوة القائمة الدائمة (..فأقيموا فيهم ..)

ـ ثم لتبدأ مهمة التعليم والتثقيف.. (..وعلموهم.)

ـ ثم التوجيه.. بأمرهم بالخير(ومروهم)
..(..وصلوا كما رأيتموني أصلي)..
لا كما سمعتموني...
لتكون للقدوة تأثيرها .

أهمية الترتيب :

وهكذا يتسلسل المنهج .. وبالترتيب..إن كثيرا من الشباب اليوم يجيدون فن الأمر والنهي .. متجاوزين مرحلة الإعداد والإرشاد... والتوعية.. ولا بد من الاستيعاب أولا ... ليكون للأمر من بعده قيمة أما مجرد الأمر .. قبل أن تتضح الحقائق في الأذهان فهو لون من التحكم لا يصل بالمتعلم إلى ما نريده له .

سلم الأولويات :

هناك أمور فرعية .. لا تحتمل الخلاف... والأمر فيها مبني على التجاوز .. والتساهل.. ومنها الأذان .. ومن أجل ذلك قال لهم : ـ (..**فليؤذن أحدكم**...) أي واحد..

ولما كانت الإمامة قيادة وريادة .. فقد كان للخبرة والسن اعتبارهما.. ومن أجل ذلك قال لهم : (**وليؤمكم أكبركم**).

وإذن .. فلا بد من التدقيق فيمن هو أهل لهذا التدقيق ...

وبذلك يحميهم من الاختلاف ... الذي ينسحب على الدعوة فيزهد الناس فيها .. وما أحوجنا اليوم إلى الوفاق بعد طول الشقاق .. فلننح الغرور جانبا .. ولنتخذ من الحق صاحبا .. ولنفتح أبصارنا على حقيقة مايراد بنا :

إن بعض الدول الكبرى تسمح لبعض الأنشطة الإسلامية أن تمارس على أرضها لكنها في نفس الوقت تفتح الطريق لنماذج رديئة تتحدث باسم الإسلام حتى تحبط القول البراق.. بالقدوة الرديئة المتحركة فلنأخذ ذلك في اعتبارنا..